

موقف أهل الشام من التبعية للحجاز

إبان الحرب العالمية الأولى

دكتور محمود حسن صالح صمغى (*)

مقدمة تاريخية :

عندما وقعت الحرب العالمية الأولى كان زعماء الحركة القومية العربية في الشام — المناهضين للإستبداد التركي والمطالبين بأن يكون لبلادهم كيان خاص — أسبق وأرسخ قدماً من تفكير الشريف حسين بن علي المعادى للأتراك .

فلقد وجدت الحكومة البريطانية أنه من الصعب عليها — إذا ما سعت إلى الإفادة من هذه الحركة الوطنية — توجيهها لتحقيق مخططاتها التي تتعارض مع أهداف هذه الحركة الوطنية وأمانها . فلقد أصر الزعماء الوطنيون العرب على أن تتعهد بريطانيا رسمياً — في مقابل الثورة على الأتراك — بأنها لا تمنع في إستقلال العرب واتحادهم . ولكن الحكومة البريطانية — وهي تفكر في تدبير ثورة عربية ضد الترك — كانت تفضل تغليب العنصر الديني على العنصر القومي حيث كانت تريد مقاومة دعوة الخليفة العثماني إلى الجهاد بدعوة دينية يبطل تأثير إعلان الجهاد على مسلمي الإمبراطورية البريطانية .

فمع أن موقف الشريف حسين وأولاده من الحركة العربية قبيل الحرب العالمية الأولى كان يثير امتعاض الأوساط العربية ، ومع أن علاقته ببريطانيا حتى خريف ١٩١٤ كانت تنحصر في مساعدته على الاستمرار في إمارة مكة ، فقد وقع اختيار بريطانيا على الشريف حسين لما كان له من مركز ديني لأنه كان متميماً إلى الدوحة النبوية ولسدائنه للأماكن المقدسة .

(*) الأستاذ المساعد بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر .

ففى رسالة بعث بها الإنجليز إلى الشريف حسين فى ٣١ أكتوبر ١٩١٤ لوتحت الحكومة البريطانية له بالخلافة وبالإستقلال وفتحوا أمامه باب الأمل فى إمكانية إتساع أحلامه فى البلاد العربية . وأننا نرى أن الدعوة كانت موجهة إلى الشريف حسين وعرب الحجاز لأن بريطانيا فى ذلك الوقت لم تفكر لتقديم العون لثورة عربية كبرى فى ممتلكات الدولة العثمانية فى أنحاء آسيا ، وإن اهتمام كتشّر انحصر فى التأكّد مما إذا كان الشريف سينحاز إلى بريطانيا أم سيقى على ولائه لترك .
قبرل القوميين العرب زعامة الشريف وظروفه وشروطه :

وفى السنة التالية فقط (١٩١٥) بدأ الشريف حسين يطالب بمحاكمة عربية تضم بلاد الشرق العربى الأسوى خصوصاً وأنه فى الوقت الذى كانت فيه بريطانيا تبحث عن زعامة دينية تساندها فى الحرب ضد الخلافة العثمانية ، كان القوميون العرب فى دمشق يبحثون عن زعامة دينية تقود نضالهم القومى بشكل لا يسهل معه ضرب حركتهم القومية بالدين وحتى لا تهّم الحركة بالمروق على الإسلام، وشق عصا الطاعة على أمير المؤمنين الخليفة ، لأن العاطفة الدينية كانت تعوق قبل ذلك ثورة العناصر الإسلامية غير التركية على الخليفة ، ومن ثم كان الزعماء القوميون العرب يبحثون فى ذلك الوقت عن شخصية عربية لها مكانتها فى الأقاليم العربية من الدولة العثمانية ، تقوم برعاية القضية العربية وتكون بلاده مركزاً للحركة العربية ، خصوصاً وأن القوميين العرب فى الشام وقد أيقنوا من صعوبة انطلاق الثورة العربية من الشام بسبب الحشود التركية فيها وقربها من عاصمة الدولة وسياسة القمع والبطش التى اتبعها جمال باشا ، ارتضوا أن تنطلق الثورة العربية من الحجاز كمركز رئيسى لها على أن يكون دورهم فى الشام دوراً مساعداً . د . محمد أنيس :
الدولة العثمانية والشرق العربى ص ٢٧٨

ولذلك فإن الزعماء العرب فى الشام شرعوا فى الاتصال بالشريف حسين وبعثوا إليه فى يناير (كانون ثان) ١٩١٥ بأحد الضباط العرب هو فوزى البكرى شقيق نسيب البكرى عضو جماعة الفتاة ومن أسرة البكرى المعروفة فى الشام لكى يعرض على الشريف فكرة قيادة الثورة على الترك من أجل نيل الإستقلال .

وإزاء عرض القوميين العرب وإدراك الشريف لمدى تاهف بريطانيا على التحالف معه وإضفاء كثير من مظاهر التفخيم على مركزه ، أخذ الشريف يتجه

إلى عدم قصر مطالبه على مسألة الشرافة والحفاظة على حقوقها ، بل اتسعت آماله وبالتالي مطالبه لتشمل البلاد العربية خارج حدود الحجاز وخصوصاً الشام والعراق ، وكان هذا يستلزم بطبيعة الحال الاتصال بزعماء الحركة القومية في البلاد العربية التي ستتألف منها الدولة العربية الكبرى مستقبلاً وبخاصة السوريين والعراقيين ، إلى جانب أمراء شبه الجزيرة العربية . إذن هناك رغبة متبادلة من جانب الشريف والزعماء القوميين في الاتصال والتفاهم ، خصوصاً وإن الشريف كان من رأيه أنه في حالة الثورة في الحجاز فإنه يجب على بريطانيا أن تقوم بعملية إنزال على سواحل الشام لقطع الإمدادات عن القوات التركية في الحجاز .

وإزاء اشتداد الخلاف بين الشريف حسين ووهيب باشا وإلى الحجاز في أوائل ١٩١٥ رأى الشريف أن يوفد ابنه الأمير فيصل لعرض وجهة نظره على ساحطات الآستانة ، ولكن مهمته الحقيقية كانت الاتصال سراً - وهو في الطريق إلى الآستانة - بزعماء الجمعيات الوطنية في الشام للتعرف على وجهة نظرهم . وعلى الرغم من أنه كان في الشام والعراق تيار إسلامي النزعة يميل إلى التفاهم مع العثمانيين والاستجابة لنداء الحرب الدينية ضد الدول الأوروبية بسبب ما عرف عن أطماع الأخيرة في الأقطار العربية ، إلا أنه كان ثمة تيار آخر قومي يهدف إلى الثورة على الترك بسبب ما قاساه العرب في ظل حكمهم ، وأخذ التيار القومي يشتد ويقوى على التيار الديني نتيجة سياسة القمع التي اتبعها أحمد جمال باشا قائد الجيش الرابع في الشام ضد العناصر الوطنية وهي السياسة التي راح ضحيتها الرعيل الأول من الشهداء الذين أعدموا في ساحة البرج ببيروت في الحادي والعشرين من أغسطس (آب) ١٩١٥

وهكذا فإنه عندما وصل فيصل إلى دمشق في أواخر مارس (آذار) ١٩١٥ في طريقه إلى الآستانة وجد التربة صالحة للثورة على الترك . وفي أثناء نزوله في ضيافة آل البكري التقى بالأعضاء البارزين في جماعة الفتاة كما التقى ببعض زعماء العهد وتعرف على أمانيه وأبلغهم بما عرضه كتنش على والده الشريف مكة ، ثم ترك لهم فرصة دراسة الموضوع في أثناء زيارته للآستانة ، بعد شهر تقريباً عاد فيصل في الثالث والعشرين من مايو (أيار) ١٩١٥ إلى دمشق حيث وجد أن الزعماء الوطنيين قد

أجمعوا الرأى على وجوب الثورة وقبول عرض بريطانيا ، ووافقوا على أن يتولى الشريف حسين قيادة الثورة ، ولكنهم وضعوا مخططاً يتضمن الشروط التى أرادوا أن تكون أساساً لمفاوضات الشريف مع بريطانيا ، وقد عرف هذا المخطط باسم (بروتوكول دمشق) وارفقت به خريطة تبين حدود البلاد العربية الآسيوية التى كان الزعماء العرب يرون ضرورة حصولها على الاستقلال .

وقد نص (بروتوكول دمشق) على ضرورة اعتراف بريطانيا باستقلال البلاد العربية الممتدة من الحدود الإيرانية والخليج شرقاً حتى البحرين الأحمر والمتوسط غرباً ، ومن الخط الفاصل بين العرب والترك شمالاً حتى المحيط الهندى جنوباً ، مع إلغاء الامتيازات الأجنبية ، وفى مقابل ذلك وافق الزعماء - فى البروتوكول - على عقد تحالف دفاعى مع بريطانيا وإعطائها الأولوية فى الشؤون الاقتصادية وعدم المساس بالوضع القائم فى عدن .

Antonius : Op. Cit., pp. 157, 8.

وإذا كان البروتوكول قد اشترط استقلال البلاد العربية داخل الحدود المذكورة فقد كان المقصود من هذا الاستقلال التحرر من الترك مع عدم الوقوع تحت سيطرة حكم أجنبي آخر ، بل وإلغاء الامتيازات الأجنبية التى كانت تتمتع بها الدول الأجنبية فى هذه الأقطار باعتبارها أجزاء من الدولة العثمانية .

ولقد كان تفويض الزعماء العرب للشريف حسين للتكلم باسمهم والاتفاق مع بريطانيا على أساس بروتوكول دمشق يعنى أنهم لا يلتزمون بأى اتفاق يتم التوصل إليه على غير هذه الأسس .

وتطورت الأمور ، ووجدت الحكومة البريطانية أنه لا مفر من إصدار وعد محدد للشريف ، فعهدت إلى سير هنرى مكماهون - المندوب السامى البريطانى فى مصر - فأصدر فى يونيو (حزيران) ١٩١٥ تصريحاً باسم حكومته وعدت فيه بأن تشترط - عند عقد الصبح - الاعتراف باستقلال شبه الجزيرة العربية وتمتعها بالسيادة الكاملة على الأراضى المقدسة ، كما عبر التصريح عن استعداد الحكومة البريطانية للترحيب باعلان خلافة عربية . وقد أذيع التصريح وطبعت منه نسخ

وزعت على شكل منشورات في مصر والسودان وهربت نسخ منه إلى الشام ، وقامت الطائرات البريطانية بإسقاط أعداد منه على مدن الحجاز (١) .

ونلاحظ أن هذا التصريح كان يهدف إلى تهديّة مخاوف المساحين أكثر من إرضاء آمال العرب الوطنية ، ذلك أنه لم يتعرض لاستقلال بقية الأقطار العربية كالشام والعراق ، وعلى ضوء هذا التصريح لم يكن من الممكن أن يؤيد زعماء العرب في الشام والعراق فكرة التحالف مع بريطانيا على أساس هذا التصريح حتى إذا قنع به الشريف لأنه يحقق مطالبه الخاصة ، ولذلك فقد بعث في الرابع عشر من يونيو (تموز) ١٩١٥ برسائله الأولى في ساسة المكاتبات المعرونة بمراسلات الحسين مكماهون والتي استمر تبادلها حتى العاشر من مارس (آذار) ١٩١٦ .

وليس هنا مجال عرض تفاصيل هذه المراسلات ولكن يكفي أن نقول إن الاتفاق بين الشريف حسين وبريطانيا لم يكن محدداً ، بل كان يكتنفه الغموض ومعرضاً للتأويل ، وقد أبدت الحكومة البريطانية تحفظات على حدود منطقة الاستقلال العربي ، وكانت المناطق التي شملتها التحفظات تتضمن مرسين واطنه والساحل السوري غربي دمشق وحمص وحماه وحلب (بدعوى أنها مناطق غير عربية) ، وبغداد والبصرة (لوجود مصالح لبريطانيا فيهما ومنطقة المصالح الفرنسية ، والمناطق التي يرتبط أمراؤها ببريطانيا بمعاهدات (وخصوصاً في الخليج) وباستبعاد مناطق التحفظات البريطانية فإن المنطقة الباقية تقتصر على الحجاز ، وبذلك لا يمكن وأن تلبى مطالب الزعماء العرب في الحرية والاستقلال .

وقد قنع الشريف حسين بهذه الوعود الغامضة غير المحددة بدعوى أنه سوف يطالب - بعد الحرب - بما تركه من أراض عربية في أثناء الحرب حفاظاً على التحالف الانجليزي الفرنسي ، رغم تحذيرات بعض الشخصيات العربية من كانوا يوجسون خيفة من الاتفاق ، إلا أنه لم يعبأ بهذه التحذيرات مؤمناً بشرف (العظمة البريطانية) حتى ليقال بأنه عندما سئل رشيد رضا عن رأيه في اتفاق الشريف مع

بريطانيا قال إن هذا الاتفاق لا يرضى به إلا عدو للعرب ، وقد بلغ الخلاف بينه وبين الشريف حداً جعل الشريف يأمر بعدم دخول المنار إلى الحجاز^(١).

وما من شك في أن أى سياسى حصيف ما كان ليحازف بالدخول في حرب وإعلان ثورة على دولة الخلافة ويزج ببلدان المشرق العربى في هذا الموقف الدقيق قبل أن يحصل على ضمانات مؤكدة قاطعة لأبأوهام واهية ، خصوصاً وقد اشترط بروتوكول دمشق على الشريف موافقة بريطانيا على شروط محددة قبل الاتفاق معها ، وعلى ذلك فإن أى تعديل في هذه الشروط - وفي مقدمتها حدود منطقة الاستقلال العربى - يعتبر خروجاً على البروتوكول ، وبالتالي يحق للعرب عدم الالتزام بالاتفاق ، بل وسحب ثقتهم ممن نصبوه قائداً للحركة العربية ، ولقد كان هذا - بين عوامل أخرى - من أسباب سخط كثير من عرب الشام على الإشراف ومعارضتهم لإدماج الشام والحجاز في دولة واحدة تحت حكم الأشراف، فإن تفويض الزعماء العرب للشريف حسين للتكم باسمهم والاتفاق مع بريطانيا على أساس بروتوكول دمشق كان معناه أنهم لا ياتزمون بأى اتفاق يتم التوصل إليه على غير هذا الأساس .

وجهات نظر زعماء الشام حول فكرة الارتباط بالحجاز :

وبعد أن قنع الشريف بالاتفاق مع بريطانيا أعان الثورة في الحجاز ، وتحورت مدن الحجاز من سيطرة الترك باستثناء المدينة المنورة ، كما استطاع - بمعاونة الضباط العرب مصريين وسوريين وعراقيين ممن وقعوا في أسر البريطانيين - أن يشكل قوة نظامية تحت قيادة الأمير فيصل ، واستطاعت هذه القوة مع قوات البلو مساعدة الجنرال اللنبي Allenby مساعدة فعالة لم يكن يستطيع الاستغناء عنها في حمايته المشهورة التي زحف فيها سنة ١٩١٧ على الشام لاستخلاصه من الترك. وفي تلك الأثناء كان لابد من تفكير زعماء العرب السوريين في مصير بلادهم بعد أن يتم تحريرها . ذلك أنه رغم قبول زعماء الجمعيات العربية تولي الشريف مكة قيادة الثورة فقد اختلفوا حول فكرة خضوعهم لتفوذ الشريف حسين الدينى

(١) د. ابراهيم أحمد العدوى : رشيد رضا - الإمام المجاهد (سلسلة أعلام العرب رقم ٣٣ لسنة

والدنيوى بعد الاستقلال ، فقد كان كثيرون يعتقدون أن ذلك أمر غير عملى لصعوبة جمع عرب الشام والعراق وشبه الجزيرة العربية على الولاء لزعيم دينى واحد حتى ولو خضعوا لزعيم دينى واحد ، وحتى لو كان لديهم الاستعداد أو الرغبة فى الاعتراف بزعيم دنيوى واحد من حيث المبدأ فانهم كانوا سيختلفون حول اختيار هذا الزعيم (١) .

وكانت القاهرة - وقتئذ - ملتقى مجموعة كبيرة من الزعماء السوريين مسلمين ومسيحيين ممن عملوا من أجل الحركة العربية ، ومعظمهم ينتمى إلى العائلات السورية ذات النفوذ ، ويضمون أكثر العناصر ثقافة واستنارة وأقلها تعصباً ، وبعضهم ممن أصدرت عليهم المجالس العرفية التركية (المحاكم العسكرية) أحكاماً بالإعدام بسبب الدور الذى قاموا به فى الحركة العربية مما اعتبرته السلطات التركية خيانة للدولة العثمانية .

ولقد كان من الطبيعى أن تمثل هذه المجموعة من الزعماء السوريين وجهات النظر المختلفة حول مستقبل الشام بوجه عام وفكرة الارتباط بالحجاز وشريف مكة بوجه خاص . وقد لاحظ المراقبون المعاصرون ومنهم وليام بيل William Yale (٢) أن هؤلاء نفر ينقسمون إلى ثلاث فئات :

أولاً - الفئة الأولى وتتكون من أولئك الذين يريدون أن يروا بلاد الشام وقد حصت على شبه استقلال تحت الإشراف والإرشاد والمعونة (الطيبة الخيرة) من دولة غربية . وليس قصدنا من ذكر هذه الفئة فى مقدمة الفئات الأخرى أنها كانت أكثرها عدداً أو أعظمها قدراً ، وإنما أردنا - بذكرها فى البداية - أن ننتهى منها حتى نبرز بالتفصيل الفئتين الأخيرتين اللتين كانتا أبرز الفئات الثلاث وأكثرها صالة بموضوع هذه الدراسة .

(١) Zeine : Arab. Turkish Relations, pp. 105 - 6.

(٢) وليام بيل مبعوث خاص أوفدته وزارة الخارجية الأمريكية فى عام ١٩١٧ إلى منطقة الشرق العربى لموافاتها بتقارير عما يجرى فى هذه المنطقة من أحداث . وتقاريره - التى حصل كاتب المقال على صورة منها من دار الوثائق القومية بواشنطن ومن مكتبة جامعة بيل - تعتبر رواية شاهد عيان تضم مشاهدته بنفسه إلى جانب أحاديثه مع كثير من الشخصيات التى تهتم بمستقبل المنطقة ووجهات نظرهم فيما يجرى من أحداث .

ومن المهم أن هذه الفئة من أنصار الوصاية الأجنبية على الشام كانت تتكون من المسيحيين السوريين دون المسامين ، وكانوا لا يوافقون على حصول الشام على الاستقلال التام ، كما كانوا لا يريدون أن يكون ثمة ارتباط بأى شكل من الأشكال بين الشام وحكومة الحجاز ، وإن كانوا لا يمانعون فى أن يتولى فيصل بن الحسين حكم سوريا تحت وصاية دولة عربية متحضرة .

ويؤسس أفراد هذه الفئة دعواهم على أن السوريين عاجزون عن حكم أنفسهم بأنفسهم ومن ثم فالإشراف الأجنبي فى نظرهم ضرورة ، كما يدعون الخوف من الاضطهاد الذى قد ينزل بهم على أيدي مواطنيهم المسامين الذين يتفوقون عليهم عددياً (١).

وفى تقرير رفعه المبعوث الأمريكى وليام بيلى إلى وزارة الخارجية الأمريكية بتاريخ ٢٠ مايو (آيار) ١٩١٨ تحدث عن اجتماع تم فى القاهرة بين مجموعة من الزعماء السوريين المسامين وشخصية سورية مسيحية بارزة لبحث المسألة السورية ، وكان الاجتماع بناء على دعوة الشخصية المسيحية . وفى هذا الاجتماع — كما يقول بيلى — طلب الزعماء المسلمون من الشخصية المسيحية أن تبدى رأيها فى فكرة دولة عربية كبرى مستقلة تكون بلاد الشام ضمن أجزائها ، فرد الزعيم المسيحى بأن المسيحيين لا يوافقون على دولة عربية تحت سيطرة الحجاز تخضع للمؤثرات الإسلامية وتكون ذات طابع إسلامى ، واستطرد فقال إن الزعماء المسلمين يمكن أن يجدوا التأييد من اخوانهم المسيحيين إذا تخلو عن فكرة دولة عربية كبرى وعملوا من أجل إقامة دولة فى الشام تتمتع بالحكم الذاتى تحت إرشاد دولة عربية ، لأن المسيحيين لا يؤيدون فكرة دولة مستقلة تمام الاستقلال فى الشام لسببين : أولهما اعتقادهم بأن السوريين — فى ذلك الوقت — ليسوا بقادرين على حكم أنفسهم وإدارة شؤون بلادهم ، وثانيهما خوف المسيحيين من أنه فى بلاد الشام المستقلة تمام الاستقلال فإن الأقلية المسيحية سوف تتعرض للاضطهاد والقهر من جانب الأغلبية المسلمة .

(١) National Archives, Washington : Yale's Report no. 14 (Feb. 11, 1981).
« The Syrian Question », pp. 8 - 9 ; & no. 23 (April 15, 1918). View and opinions of the Syrian Moselms in Egypt, pp. 5 - 6.

وأضاف الزعيم المسيحي أن المسيحيين يسرهم أن يكون الأمير فيصل حاكماً على الشام ، حيث أنه قد بذل الكثير من أجل القضية العربية ، ولكن بشرط ألا يكون بين حكومة الشام وحكومة الحجاز أى ارتباط .

وفي اعتقادي أن الزعماء المسلمين بمطالبتهم بإصرار - في هذا الاجتماع - بأمبراطورية عربية تضم الشام والعراق وشبه الجزيرة العربية إنما كانوا أو كان معظمهم يحاول أن يساوم زميلهم المسيحي أكثر منه اقتناعاً بإمكان تنفيذ فكرة الدولة العربية الكبرى ، وذلك بأن يعرضوا - بعد طول حوار - تنازلهم عن فكرة الدولة العربية الكبرى مقابل تنازل المسيحيين عن فكرة الوصاية الأجنبية على الشام وترحزهم عن الإصرار عليها ، وبذلك يتفق الجانبان على إقامة حكومة مستقلة تمام الاستقلال في بلاد الشام لا تخضع لأى تدخل سواء من جانب الحجاز أو من جانب أى دولة أوروبية . ويتجلى ذلك بوضوح - كما جاء في تقرير ييل - من موافقة الزعماء المسلمين على أن فكرة دولة عربية كبرى أضخم من أن تتحقق ، وإعلانهم أنه من الأفضل العمل من أجل بلاد الشام المستقلة تحت حكم الأمير فيصل باعتبار ذلك فكرة عملية أكثر ، بشرط ألا تخضع الشام لوصاية دولة غربية .

ولا شك في أن الرأي الذي تنادى به هذه الفئة - وهو خضوع الشام لوصاية دولة غربية سواء كانت هذه الدولة هي فرنسا أو بريطانيا أو الولايات المتحدة الأمريكية - فإنه يعتبر رأياً شاذاً ، ويدل على أن الداعين إليه لا تزال يسيطر عليهم التعصب الديني وارتفاع المذهب الديني في نظرهم عن الفكرة الوطنية بحيث آثروا الوصاية الأجنبية على الاستقلال التام وهذا دليل على انحرافهم عن الخط الوطني السليم نتيجة ما أحدثه في نفوسهم التعليم الأجنبي في مدارس البعثات التبشيرية .

ولقد أعترف وليام ييل نفسه بأن خضوع الشام لحماية دولة أوروبية كبرى من شأنه أن يبذر الشقاق والوقية ويوسع هوة الخلاف بين المسلمين والمسيحيين ، كما أن هذه الحماية الأجنبية لن تساعد مطلقاً على تقدم الروح الوطنية أو نمو المقدرة على الحكم الذاتي .

Yale's Report no. 28 (May 20, 1918). « Syrian Propaganda Relative to the (١)

United States. » . pp. 1 - 3.

Yale's Rep. no. 14, p. 11. (٢)

ثانياً - الفئة الثانية وتتكون من أولئك الذين يتعصبون بشدة للملك الحجازي ولذلك فهم يرغبون في أن يتولى الملك حسين حكم الشام بإعتبارها جزءاً من اتحاد عربي كبير أو دولة عربية كبرى تضم شبه الجزيرة العربية والعراق والشام ، يتولى حكمها جميعاً شريف مكة كسلطان عربي وخليفة إسلامي أى يتولى الزعامة كحاكم زمني ورئيس أو زعيم ديني . وفي الوقت نفسه ينادى هؤلاء بأن بلاد الشام يجب أن تكون مستقلة تماماً عن أى نفوذ أوروبي ، وكان أفراد هذه الفئة جميعاً من المسلمين أنصار الوحدة الإسلامية الذين لا تزال تشدهم الروابط الدينية وهدفهم الأعلى دولة عربية إسلامية كبرى .

وفي الوقت نفسه شهدت منطقة الشرق العربي دعاية نشطة تدعو إلى قيام دولة عربية إسلامية كبرى تكون بلاد الشام جزءاً منها ويتولى حكمها شريف مكة كحاكم زمني وزعيم روحي ، فإذا بحثنا عن الجهة التي كانت وراء هذه الدعاية فلا بد وأن نتجه أذهاننا إلى هذه الفئة من الزعماء السوريين إن لم يكنوا المصدر الأساسي لهذه الدعاية فلا بد وأنهم باركوا الفكرة وأيدوها لأنها تتفق مع ما يؤمنون به .

ولكن لا بد وأنه كانت وراء هذه الدعاية جهات أخرى أشد قوة وأكثر رغبة لأنها تحقق لهم مصالح معينة ، خصوصاً وأننا قد رأينا كيف أن عدداً من الزعماء المسلمين أنصار فكرة الدولة الإسلامية الكبرى كانوا على استعداد للتخلي عن هذه الفكرة وتخلي مواطنوهم المسيحيون عن فكرة الوصاية الأجنبية على الشام .

فهل كان الأمير فيصل بن الحسين يؤيد فكرة الدولة العربية الكبرى ؟ يرى المراقبون أن الأمير فيصل في قرارة نفسه لم يكن يجذب قيام مثل هذه الدولة الواسعة لأن ذلك لن يتيح له فرصة تولى حكم الشام منفرداً ، ولو أنه لم يكن ليجاهر بهذا الرأي أرضاء لوالده الشريف .

إذن من كان وراء الدعاية لفكرة الدولة العربية الكبرى ؟ في رأى المراقبين المعاصرين وخصوصاً وليام بيل أن ثمة مصدرين يمكن أن تصدر من أحدهما أو عنهما معاً الدعوة لإقامة الدولة العربية الكبرى ، المصدر الأول هو الشريف حسين ملك الحجاز والمصدر الثاني يتمثل في البريطانيين . فماذا كانت دوافع كل منهما ؟

أما عن ملك الحجاز قد أحس - والحرب تسير نحو النهاية - أن الوقت سوف يحين وشيكاً لبحث مستقبل الشام وبقية الأقطار العربية الخاضعة للأمبراطورية العثمانية ، وكان من مصلحة ملك الحجاز أن يبدأ حملة دعائية لإقامة أمبراطورية عربية يكون هو حاكمها الزمى وزعيمها الروحى فى آن واحد .

فلاشك فى أن تحقيق آمال الشريف حسين الأساسية ومطالبه الأولى بتدعيم سلطته فى الحجاز فقط لم يكن يعتبر - فى نظره - مكافأة مجزية له على الثورة ضد دولة الخلافة وإعلان الحرب عليها . وهى حرب لم تكن نتيجتها مؤكدة ، وإنما كانت مغامرة قد تؤدى إلى القضاء على الدولة الإسلامية الكبرى فى العالم وهى الدولة العثمانية وهو أمر لم يكن ليغفره له عدد كبير من المساحين فى شتى أنحاء العالم ، ومن ثم فهو من ناحيته يحاول أن يبرىء نفسه فى أعين المساحين وذلك بأن يقيم هو دولة إسلامية كبرى مستقلة تشمل - إلى جانب الحجاز - شمال العراق وداخلية الشام ، على أساس أنه يمكن ترك جنوب العراق لبريطانيا وساحل الشام لفرنسا (مؤقتاً) .

ومن ناحية أخرى فقد كان الملك حسين يرى أن الحجاز الفقير فى إمكانياته الاقتصادية ليس مكافأة مجزية له على ثورته هذه كما أنه لن تكون له إمكانيات الدولة المستقلة استقلالاً تاماً . ويبدو هذا فى حديث بين الزعيم السورى حقى بك العظم والأمير فيصل بن الحسين فى أثناء لقاء بينهما فى مقر قيادة الأمير فى العقبة ، ففى خلال مناقشة بينهما حول مستقبل الشام ذكر الأمير لحقى العظم أن البريطانيين قد يستمرون فى السيطرة على العراق ، ولكن بلاد الشام يجب أن تتمتع بقدر من الاستقلال تحت سيادة حكومة الحجاز ، على أساس أن الحجاز وأهله هم الذين قاموا بالثورة على الترك بل وحاربوا من أجل تخلص بلاد الشام وتحريرها ، وعلى لك كان الأمير يعتبر أن سوريا هى المكافأة التى يستحقها والده مالك الحجاز وبعه أبناءه من أجل مساعدتهم وتأييدهم لقضية الخلفاء من ناحية وتحرير الشام من ناحية أخرى . خصوصاً وأن آمال الشريف التى بدأت متواضعة ومقتصرة على الحجاز لم تلبث أن اتسعت لتشمل الشام والعراق ، بعد أن لمس - عن طريق الضابط السورى فوزى

البكرى ، ثم عن طريق ابنه فيصل بعد زيارته لدمشق عشية الثورة - أزيد
 كراهية عرب الشام لحكم الاتحاديين ، فأصبح الشريف يعتقد أنه يمكن الاعتماد
 على أهل الشام والعراق في تحقيق آماله الواسعة علماً بأن المعونة له وللثورة من جانب
 أهل الشام والعراق كانت ضرورية ولم يكن الشريف يستطيع العمل بدونها ،
 خصوصاً وأنه لم يكن يتوقع أن يجد عوناً من المصريين حيث كان الشعور موالياً
 للترك ضد بريطانيا ، كما أن الشريف - وهو بحاجة لمعونة القوات البريطانية - كان
 يود لو أن البريطانيين أنزوا قواتهم على سواحل الشام لاشغالة الترك عن محاربة
 الثورة في الحجاز ولقطع امدادات الترك عن قواتهم المتمركزة في الحجاز حتى
 تناح للشريف فرصة النصر .

وأدرك وليام بيل أنه إذا كان الشريف حسين يعارض احتلال فرنسا لشام فإنه
 أيضاً كان لا يطيق ولا يحتمل آمال السوريين في الاستقلال عن الحجاز وبقية أقطار
 الشرق العربي ، وأنه يطمع في أن يكون الرئيس الزماني للدولة عربية إسلامية
 كبرى وبذلك يصبح خليفة للمسلمين والزعيم الروحي للعالم الإسلامي ، وهو إذ
 يوافق على سياسة بريطانيا إزاء الصهيونية وفلسطين وقبل سيطرة بريطانيا على العراق
 الأدنى فإنه يلح على بريطانيا من أجل مساعدته لكي يكون مائلاً على الشام والعراق
 الأعلى إلى جانب الحجاز .

ولذلك يعتقد البعض أن الشريف حسين لا يد وأنّه أفصح عن آماله هذه للمسؤولين
 البريطانيين ولعاه لقي منهم نوعاً من التشجيع . إلا أنه لوحظ أن الحكومة البريطانية ،
 إذا كانت تشجع الشريف حسين في آماله رغم علمها باتساع هذه الآمال والأطماع
 في الشام والعراق ، فإن بريطانيا كانت تراقب الشريف مراقبة دقيقة حتى لا تخرج
 هذه الأطماع عن سيطرتها ، وكان المسؤولون البريطانيون يعتقدون أن الشريف لن
 يجد الطريق سهلاً في الشام حيث توقعوا أن يصطدم بمعارضة السوريين أنفسهم
 دون أي تدخل من جانب بريطانيا ، أما عن العراق فإن احتلال البريطانيين لهذا

(١) Yale's Rep. no. 33 (July 1, 1918). « Arab Empire Propaganda », pp. 19 - 20.

(٢) Yale's Rep. no. 22 (April 8, 1981). « Cheifiar forces and Cherifian Politics », pp. 13 - 15.

القطر كفيل بأن يحول دون وقوعه تحت سيطرة الشريف وحده ، وهكذا تنحصر سيطرة الشريف من تلقاء نفسها في شبه الجزيرة العربية بل وفي الحجاز فقط .

وعلى كل حال فقد أدرك المراقبون أن قيام الدولة العربية الكبرى التي كان يحلم بها الشريف حسين في هذه المنطقة من العالم وخضوعها لسيطرته وزعامته كان في مصلحة بريطانيا ، ومن ثم كانت بريطانيا هي المصدر الثاني الذي يقف وراء الدعاية لفكرة الأمبراطورية العربية لأنها تخدم مصالحها . فقد أدرك المعاصرون أن بريطانيا — بمحاولتها كسب الشريف حسين إلى جانبها إنما تسعى إلى تحقيق هدفين أولهما هدف قريب ألا وهو مواجهة تأثير الحرب الدينية التي أعانها الخليفة العثماني السلطان محمد رشاد ، وتهدة المسلمين في داخل الأمبراطورية البريطانية وخارجها ، وكسب ولاء عرب الشام والعراق ، وضمان معونة القبائل التي تقطن على جانبي القوات البريطانية في العراق وسيناء ، لأنه إذا اتخذت هذه القبائل موقفاً معادياً من البريطانيين فإنها ستكون عائقاً شديداً للخطورة في وجه تقدمهم بل وخطراً يهدد مواصلاتهم ، بينما — كأصدقاء — تستطيع هذه القبائل حماية جناحي البريطانيين وتأمينهما .

أما الهدف البعيد الذي كان البريطانيون يسعون إلى تحقيقه بعد انتهاء الحرب فهو إقامة دولة أو دول إسلامية مستقلة في الظاهر على انقراض الامبراطورية العثمانية المنهارة ، على أن تكون هذه الدولة أو الدول الجديدة تحت أى شكل من أشكال السيطرة البريطانية ، وتخدم كبديل للأمبراطورية العثمانية وتقوم بالدور التقليدي في حماية مواصلات بريطانيا مع الهند .

فلقد كان تكوين دولة أو اتحاد دول عربية تحت رئاسة الشريف حسين أمراً يخدم مصالح بريطانيا ولا شك ، ومن ثم كانت بريطانيا وراء الدعاية لإقامة دولة عربية تضم داخلية الشام وشمال العراق وأجزاء من شبه الجزيرة العربية ، ذلك أن الخطر الذي كان يقلق بال بريطانيا ويقض مضاجع ساستها هو حليفها (اللدود) فرنسا ، صاحبة الأطماع التقليدية في الشام ، وهي أطماع سامت بها بريطانيا في

(١) Yale's Rep. no. 2 (Nov. 5, 1917). p. 15

(٢) Ibid. p. 16.

بعض الأحيان ، ولذلك فإن الحكومة البريطانية كانت ترى أن أفضل وسيلة لإبعاد فرنسا عن الشام هي إدخال هذا القطر ضمن امبراطورية عربية كبرى يحكمها الشريف حسين ، وكان هذا الحل مريحاً لبريطانيا من عدة نواح :

(أ) فإن سيطرة الفرنسيين على دمشق لا تعطيهم فقط السيطرة على واحد من أهم المراكز الإسلامية ولكنها أيضاً ستعطيهم نفوذاً قوياً للتأثير في شئون شمال شبه الجزيرة العربية — بسبب وجود خط سكة حديد الحجاز — والتأثير في شئون مملكة الحجاز ذاتها .

(ب) كما أن مجاورة الممتلكات الفرنسية لوادى دجلة والفرات لا يمكن أن ترتاح إليه بريطانيا خوفاً من التأثير على شئون العراق .

(ج) كما أن وجود فرنسا في الشام — ولو في شماله فقط — سوف يسبب المتاعب لبريطانيا في فلسطين حيث كانت بريطانيا ترى أن الظروف الطبيعية ستجعل أبواب فلسطين الشمالية في أيدي الفرنسيين ، علاوة على أن شرق فلسطين يمكن أن يكون في متناول أى عدو لبريطانيا يسيطر على الشام .

ولما كانت بريطانيا لا تريد أن تحرم فرنسا حرماناً تاماً من الأسلاب في منطقة الشرق العربي فقد رأت أنه يكفي أن يكون نصيبها ساحل الشام فقط فقد قدرت بريطانيا أنه سيكون لها وجود في كل من فلسطين وجنوب العراق ، وباقتصار النفوذ الفرنسي على ساحل الشام يبتعد عن منطقة النفوذ البريطاني .

وإذا كانت بريطانيا لا تريد أن تخضع الشام لفرنسا ، فإنها أيضاً لا تنظر بارتياح لحصول الشام على الاستقلال ، لأنه إزاء نمو الوعي القومي في هذا القطر فإن بريطانيا لن تضمن أن تكون لها اليد العليا في تصريف شؤونه وتوجيهها إلى ما فيه مصلحة بريطانيا قبل أى اعتبار آخر ، خصوصاً وأن بلاد الشام المستقاة سوف تثير عواطف العرب في الممتلكات البريطانية مثل العراق وفلسطين ومصر ، فيهب هؤلاء المطالبين بالحرية والاستقلال وبذلك يتعرض نفوذ بريطانيا في الشرق للتدهور والانهيار .

إذن لمن تخضع بلاد الشام ؟

الحل الأمثل من وجهة نظر المصالح البريطانية هو خضوع الشام وشمال العراق للملك الحجاز ضمن اتحاد فيدرالى وبذلك يكون جيران بريطانيا في هذه المنطقة هم العرب الذين سوف يكونون تحت أى شكل من أشكال السيطرة البريطانية بحكم سيطرة بريطانيا على الشريف حسين . ويرى المراقبون المعاصرون أن الشريف وافق على سياسة بريطانيا نحو فلسطين وجنوب العراق مقابل مكافأته على معاونته لبريطانيا بالاعتراف به حاكماً على الشام وشمال العراق ، وتوقع هؤلاء المراقبون أن يعجز الشريف عن إقامة حكومة تتصف بالكفاءة والمقدرة في إدارة شئون مختلف أنحاء هذه الدولة الواسعة وعلى ذلك فإن بمرور الوقت سيصبح على البريطانيين أن ياءبوا دوراً أكبر في شئون مثل هذه الدولة العربية أو الاتحاد الفيدرالى العربى إلى أن يصل الحال ببريطانيا إلى إقامة شبه حماية على هذه الأقطار (١) .

وإلى جانب هذه الدوافع التى كانت وراء تأييد بريطانيا لفكرة إقامة دولة عربية كبرى تحت حكم ملك الحجاز كان هناك عامل قوى فى توجيه السياسة البريطانية فى هذا المجال وهو موقف الصهيونية وسياساتها إزاء هذه الفكرة . فمادام الصهيونيون قد عقدوا العزم على إقامة كيان يهودى فى فلسطين فلا بد لهم وأن يبدوا اهتماماً كبيراً بمستقبل بقية بلاد الشام .

لم يكن الصهيونيون يرتاحون لوجود فرنسا كدولة أوروبية لكبرى فى الشام جارة لهم فى فلسطين وبذلك تقف فى وجه أى توسع صهيونى فى المستقبل نحو الشمال على حساب بقية الشام .

كذلك لم يكن الصهيونيون يرتاحون لقيام دولة عربية مستقلة تمام الاستقلال فى بقية الشام ، فقد كانوا يرون فى هذه الدولة الحرة خطراً على دولتهم التى يعيش فيها مئات الألوف من العرب الذين يملأ قلوبهم السخط على سيطرة الصهيونيين على بلادهم ، فيتطلع عرب فلسطين إلى إخوانهم فى الشمال لتخليصهم .

ولكن إذا قام اتحاد فيدرالى عربى تحت حكم ملك الحجاز فإنه - فى توقعات الصهيونيين - سيكون بناء مفككاً تعمه الفوضى ويشمله الاضطراب وبذلك لا يكون هناك ما يخشاه الصهيونيون من جانب هذه الدولة العربية ، بل توقعوا أنه

بمرور الوقت سوف تتاح الفرصة للصهيونيين في فلسطين للتوسع على حساب الدولة المجاورة تلك الدولة التي توقعوا أن يدب فيها الضعف فتعجز عن حكم نفسها بعجز الشريف عن إدارة شئونها .

وبذلك نرى أن وجهة نظر الصهيونية في هذا الصدد متفقة تماماً مع وجهة النظر البريطانية ، ولذلك فقد كان من المحتمل أن يمارس الصهيونيون في مختلف دول العالم ضغطاً على حكوماتهم من أجل تأييد سياسة الحكومة البريطانية نحو فكرة إقامة دولة عربية كبرى في الشام والعراق تحت حكم ملك الحجاز .

ولما كان الشريف حسين قد ظهر إبان الحرب العالمية الأولى كزعيم سياسى بين العرب ، وقاد ثورة لمصلحة الحلفاء فإن هذا المركز الذى صار يحتله الشريف سوف تستغله بريطانيا من أجل إقناع العالم بأنه ممثل عرب الشام والعراق وشبه الجزيرة ، وأن آماله وأمانيه هى آمال وأمانى أهل الشام والعراق ، وأنه بتسليم دول العالم بهذه الأمانى وتحقيقها فإنها بذلك تكون قد أعطت العرب حق تقرير المصير وبذلك لاتجد بريطانيا معارضة من دول العالم في تعيين الملك حسين على رأس هذه الدولة العربية .

وهكذا يبدو في نظر المراقبين المعاصرين كما لو كانت هناك مصاحبة مشتركة فيما يختص بالشرق العربى بين البريطانيين والصهيونيين والملك حسين حتى ولو لم يكن هذا الأخير يعلم أو يقصد ذلك ، ولذلك فقد صار من المحتمل أن تنهج هذه الأطراف الثلاثة نهجاً واحداً في مؤتمر السلام . ويستطرد وليام بيل فيقول إنه ليس هناك أى من هذه الأطراف الثلاثة يمكن القول بأنه مهتم برفاهية أو أمانى سكان الشام والعراق .

فبريطانيا مهتمة بحماية امبراطوريتها وإبعاد أى منافس يمكن أن يهددها في هذه المنطقة ،

والصهيونيون يريدون إقامة كيان لهم في فلسطين ويريدون إبعاد أى خطر يمكن أن يهدد هذا الكيان ، بل ويريدون خلق المناخ المناسب لتحقيق مخططاتهم التوسعية

في المستقبل ، والملك حسين يريد أن يرى على أنقاض الإمبراطورية العثمانية
امبراطورية عربية إسلامية يكون هو ونسائه حكاماً لها ؛ وهو لا يهتم ولا يشغل
نفسه برغبات السوريين .

والأطراف الثلاثة تريد إقناع العالم بأن مخططهم يلي رغبات أهالي المنطقة
العربية ويحققها (١).

ويستدل وليام بيل على دور بريطانيا في الدعوة لقيام إمبراطورية عربية تكون
لها فيها اليد العليا بما علمه من أحد الزعماء السوريين المقيمين في القاهرة من أن
شخصية بريطانية تعمل سراً وبهدوء من أجل الدعاية لهذه الفكرة بين الزعماء
السوريين المقيمين في القاهرة .

ولم يلبث بيل أن اكتشف هذه الشخصية البريطانية فوجدها تتمثل في أوزمون
والروند Osmon Walrond الذي كان يعيش في مصر قبل عشرين سنة ، ويعمل
في المساحة ، وهو مهتم بالشؤون العربية ، ووصل إلى مصر في غضون عام ١٩١٨ ،
ليعمل مع مكتب المندوب السامي البريطاني رأساً كمستشار سرى لشؤون العربية .
وأخذ مستر والروند يتصل بالشخصيات العربية الموجودة في مصر :
السورية أو العراقية أو من شبه الجزيرة العربية .

وقد أجرى وليام بيل حديثاً مع والروند حول الحلول المحتملة للمسألة السورية
والعربية ، وأشار والروند إلى احتمال قيام إمبراطورية عربية مستقلة تتكون من
دويلات متحدة اتحاداً فيدرالياً يضم الشام والعراق وشبه الجزيرة العربية ، وذكر
أنه كان يشجع الشخصيات السورية على الاتجاه هذه الوجهة حتى لقد كان يمدد
بما يعينهم على ذلك مثل دستور الولايات المتحدة الأمريكية ودستور جمهورية
سويسرا الاتحادية وغير ذلك من الوثائق ومعها ترجمتها العربية ، وأشار والروند
لويليام بيل أنه يفعل ذلك من تلقاء نفسه وعلى مسؤوليته الخاصة أي ليس مكافئاً من
أحد بهذه المهمة ، ولكن بيل أدرك وفطن إلى أن هذه الدعاية لا يمكن أن تجري
في مصر دون معرفة سابقة من جانب المخابرات البريطانية والمسؤولين البريطانيين
بوجه عام ، مما يوحي بأن مستر والروند إنما يعمل بتكليف أو بإذن الحكومة
البريطانية وموافقتها .

كما أضاف والرونند في حديثه مع بيل أنه مهمتهم بتنظيم جيش الأمير فيصل وكذلك جهاز الأمير الإداري ، وأنه أوضح للأمير أنه من الضروري لمصلحته أن يظهر مقدرته على إقامة نظام حكومي يتسم بالكفاءة والمقدرة في تآك الأجزاء من بلاد الشام التي سقطت في يده أو التي سوف تسقط كما تقدمت قواته . لأنه (موضوع تحت الاختبار) أمام أهل الشام وأمام الدول الأوروبية التي قد لا تسمح له بتولى حكم الشام (نيابة عن والده طبعاً في المخطط البريطاني) إذا ظهر عجزه عن إقامة جهاز إداري كفء فيها .

ويخلص وليام بيل إلى القول بأنه مهما كانت دوافع بريطانيا من وراء القيام بالدعاية من أجل استقلال العرب ، أو سماح المسؤولين البريطانيين لأحد رجالهم أو عملائهم بالقيام بهذه الدعاية ، فإنه من الواضح أن نجاح مثل هذه السياسة سوف يترتب عايه القضاء على آمال الفرنسيين في الشام وضمان إطلاق يد بريطانيا -- من الوجهة العملية -- في شئون شبه الجزيرة العربية والشام والعراق .

ويختتم بيل تقريره حول هذه الأمور بأن العامل الأساسي في السياسة المتبعة في منطقة الشرق العربي هو التنافس بين بريطانيا وفرنسا ، وما الصهيونيون وشریف مكة وزعماء الشام (مسيحيون ومسلمون) سوى أدوات -- كقطع الشطرنج -- يحركها اللاعبان المتنافسان بحذر تحقيقاً لمصالحهما ، مع تفادى الإساءة إلى العلاقات الحساسة فيما بينهما بقدر الإمكان (!) .

ولكن هل كان الشريف حسين وابنه الأمير فيصل يمثلان الحركة القومية العربية ويعبران عن آمالها بصدق ؟

لقد أدرك المراقبون المعاصرون أنه لا يمكن اعتبار الشريف حسين أو ابنه الأمير فيصل متحدثاً باسم العرب -- عرب المشرق -- يعبر عن أمانهم القومية . ذلك لأن الحركة العربية ترجع أساساً إلى سحق العرب على الحكم العثماني ، وقد بدأ هذا الشعور قبل نشوب الحرب العالمية وقبل أن يعان الشريف وأبناؤه الخروج على الترك بسنوات عديدة ، وترغم الحركة القومية العربية أهل الشام بسبب الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية التي كانت تسود بلادهم منذ أواخر القرن التاسع عشر ، ولم يحدث اتصال بين الشريف حسين وابنه فيصل وبين أهل الشام إلا في عام ١٩١٥ .

وإذا كان بعض القوميين السوريين يرتبطون بالأمير فيصل ، ويحاربون في صفوف قواته ، فإن هدف هؤلاء الزعماء هو تخليص بلادهم من حكم الترك وليس من أجل وضع بلادهم تحت سيطرة ملك الحجاز أو تحت سيطرة دولة أوروبية .

ثالثاً — الفئة الثالثة : ولذلك فإننا نرى بين فئات الزعماء السوريين تلك الفئة الثالثة التي كانت تطالب باستقلال الشام عن الحجاز وعن أى تدخل أجنبي وإن كانت لا تمنع في أن يتولى فيصل حكم الشام بصفته الشخصية كحاكم دستوري على رأس حكومة مدنية عصرية يشترك فيها المسيحيون .

وهذه الفئة إنما تمثل أكثر العناصر الوطنية وعياً واستنارة ، وإيماناً بإمكان قيام حكومة في الشام على النمط الحديث ، هؤلاء هم الذين ارتفعت قوميتهم فوق مستوى التعصب المذهبي ، ويهدفون — من وراء هذا الاتجاه — إلى تحقيق الرخاء والازدهار لبلاد الشام كدولة حديثة .

وقد كان هؤلاء أكثر الزعماء السوريين عدداً ، خصوصاً — كما أشرنا من قبل — أن عدداً كبيراً من أنصار فكرة الدولة العربية الكبرى قد انضم إليهم بعد أن اقتنع بفكرة قيام دولة مستقلة في بلاد الشام وحدها ، من أجل اجتذاب العناصر المسيحية وعدم تركها تتعلق بفكرة الوصاية الأجنبية .

أما اختيار الأمير فيصل بالذات فقد كان يرجع لما انصف به من الاعتدال في الرأي ، واتفاقه في كثير من الأمور مع زعماء الجمعيات القومية في الشام ، إلى جانب أن توليته سوف تؤدي إلى تفادي النزاع بين مختلف الاتجاهات في الشام حول من يتولى الحكم فيها ، وهو نزاع — لو حدث — سوف يجر البلاد إلى حرب أهلية ويحطم الأمان القومي وهي على وشك أن تتحقق .

ومن الأمور الهامة التي تجذب الانتباه وتلفت النظر أنه مامن فئة من هذه الفئات الثلاث التي تحدثنا عنها كانت تحبذ أو ترغب في أن ترى بلاد الشام مقسمة إلى أجزاء صغيرة مثل فلسطين وجبل لبنان والمناطق الداخلية ، فإن هذه الفئات جميعاً — بصرف النظر عن اختلاف وجهات نظرها حول حكومة الشام المستقبلية ، كانوا جميعاً يريدون أن تكون كل المناطق التي تتكون منها بلاد الشام تحت حكومة واحدة وتشكل دولة واحدة تعرف باسم الشام .

عوامل عزوف زعماء الشام وأهله عن الارتباط بالحجاز :

من العرض السابق لآراء مختلف فئات زعماء الشام نخلص إلى أنه باستثناء فئة قليلة من المسيحيين أنصار الوصاية الأجنبية ونفر قابل من المسامحين أنصار الوحدة مع الحجاز ، فإن أغلبية زعماء الشام والصفوة المختارة منهم كانوا من أنصار قيام حكومة مستقلة في الشام غير مرتبطة بحكومة الملك حسين في الحجاز .

فما الأسباب التي كانت وراء ذلك ؟

في الحقيقة إن البحث والتقصي وراء هذه الأسباب يحتاج إلى دراسة خاصة قائمة بذاتها حول موقف الإشراف من قضايا الشرق العربي المصرية ، ولكننا من أجل استكمال هذه الدراسة التي بين أيدينا سوف نعرض بإيجاز لهذه العوامل .

أولاً : عدم التزام الشريف حسين - في مفاوضاته مع بريطانيا - بالشروط التي وضعها زعماء الجمعيات العربية في الشام وضمنوها بروتوكول دمشق وخاصة فيما يتصل بحدود المنطقة العربية التي يطالب من بريطانيا الاعتراف باستقلالها ، وتوصل الشريف حسين مع بريطانيا إلى اتفاق استبعدت فيه مناطق من العراق والشام لكي تخضع لبريطانيا وفرنسا حتى ولو كان الشريف يعتقد أنه خضوع مؤقت . وهذا الإخلال بالتزامه نحو الشام يجعل زعماء هذا القطر وأهله في حل من استمراره في توليته زعامتهم ، وصاروا لا يطمئنون إليه في المستقبل في المحافظة على حقوق أقطار المشرق العربي وعدم التفريط فيها .

ولعل أبلغ دليل على ذلك أنه على الرغم من اضطراب الملك حسين لتعيين عزيز على المصري رئيساً لأركان حرب الجيش النظامي الذي كان يجري تكوينه في الحجاز فإن إقامة عزيز على في الحجاز لم تطل ، وتكاد الآراء تجمع على أن عدم استمرار عزيز على المصري في مهمته يرجع إلى سخطه على مماطاة الإنجليز في إرسال اللازم للقوة العربية وسخطه على الشريف لاستسلامه لهم ، فإنه عندما ذهب عزيز على إلى الحجاز فهم حقيقة موقف بريطانيا ووعودها حتى صار يرى أن التفاهم مع الترك قد يكون أجدى على العرب .

ثانياً - موقف الملك حسين المتسم بالضعف والخنوع والاستسلام بعد أن علم باتفاق بريطانيا وفرنسا - في اتفاقية سايكس / بيكو في ربيع ١٩١٦ - على

اقتسام أقاليم الشرق العربي كمناطق نفوذ فيما بينهما ، مما يتعارض تعارضاً صارخاً مع اتفاق الشريف حسين مع بريطانيا . فإنه بعد وصول أنباء هذه الاتفاقية إليه بث إلى الحكومة البريطانية مستفسراً عن صحتها وحقيقتها ، فإذا بالحكومة البريطانية ترد على استفساره رداً هو الكذب بعينه ، وكان جديراً به — إذا كان حريصاً على مصالح العرب — أن يطالب من الحكومة البريطانية — بعد أن ساورته الشكوك أن تبرم معه اتفاقاً صريحاً لا لبس فيه ولا غموض وإلا نفض يده من التحالف معها .

وليس أدل على سخط أهل الشام من موقف الملك حسين من اتفاقية سايكس / بيكو من أن الأمير فيصل عندما بعث إلى أحد زعماء جبل الدروز في حوران لكي يتعاون مع قوات ملك الحجاز المتقدمة في الشام رفض للزعيم السوري معلناً سخطه وعدم رضاه عن سياسة بريطانيا والملك على السواء (١) .

ثالثاً — موقف الملك حسين من تصريح بالفور الذي أصدرته الحكومة البريطانية في الثاني من نوفمبر (تشرين ثان) ١٩١٧ بشأن إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين العربية ، فإنه بعد أن استفسر الملك حسين من الحكومة البريطانية إذا بهذه ترسل إليه رداً ينطوي على الخديعة مزجت فيه بين الوعد والوعيد ، فصورت له أن في إقامة الوطن اليهودي انقاداً لليهود من الاضطهاد ، وأن صداقة العالم اليهودي لها أهميتها في تحقيق الأمن العربي ، ثم إن بريطانيا مصممة تصميمياً قوياً على ألا توضع عقبة في سبيل تحقيق هدف الحركة الصهيونية .

وفي الوقت الذي أثار فيه تصريح بالفور غضب الشعب العربي في الشام وسخطه تقبل الملك حسين التصريح ، حتى لقد أرسل إلى أتباعه في مصر وإلى قواته المشتركة في القتال بأنه تلقى تأكيدات من الحكومة البريطانية بأن وجود اليهود في فلسطين ان يتعارض مع استقلال العرب في هذه البلاد ، ويحث العرب على الاستمرار في الثقة في وعود بريطانيا ، بل وأوصى بنشر مقال في صحيفة القبلة الناطقة باسمه (العدد ١٨٣ في ٢٣ مارس — آذار — ١٩١٨) — يحث فيه الشعب العربي على

(١) National Archives, Washington : Yale's Report no. 17 (March 4, 1918).

« Growing Discontent Among the Arabs ».

الترحيب باليهود والتعاون معهم استجابة لتقاليد العربية التي تدعو إلى التسامح والكرم .

وهكذا حاول الملك حسين أن يستخدم نفوذه في كسر حدة المعارضة العربية لتصريح بالفور واثقاً كل الثقة في كل ماتدعيه بريطانيا ، غير مقدر للعواقب الوخيمة التي سوف تترتب على هذا التصريح وهو أمر ما كان ليغيب عن أى سياسى حصيف تصدى لرعاية مصالح الشعب العربى .

رابعاً - وأخيراً وليس آخراً فإن زعماء الجمعيات العربية في الشام وهم من خيرة رجالات العرب ، ممن تلقوا تعليماً حديثاً على أرقى مستوى وشاهدوا ودرسوا الأنظمة الحكومية الحديثة في المغرب ، كانوا يرايدون - عندما تحصل بلاد الشام على الاستقلال - أن تقوم بها حكومة مدنية عصرية تحكم البلاد حكماً دستورياً وفقاً لأحدث الأساليب والنظم الحكومية والإدارية وهو أمر ما كانوا يتوقعونه من حاكم كالمملك حسين له أفكاره في الحكم تختلف عن أفكارهم ، ويكفى أن نلقى نظرة على الحكومة التي أقامها في الحجاز عقب إعلانها ملكاً على الحجاز في أول المحرم ١٣٣٥ هـ (٣٠ أكتوبر - تشرين أول - ١٩١٦) والحكومة الدستورية النيابية التي يقوم على مبدأ المسئولية والتي أقامها المؤتمر السوري لبلاد الشام في مارس (آذار) ١٩٢٠ لكي نعرف الفارق الكبير والهوة السحيقة بين التفكير السياسى عند زعماء الشام وعند الملك حسين .

وعلى كل حال فإن المخططات الاستعمارية التي كانت مهيئة للمنطقة لم تجعل الشام أو العراق تنعم بالاستقلال .